الفصل الأول

حالة مصر قبيل الفتح الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد
حالة مصر قبيل الفتح الإسلامي

كانت مصر قبيل الفتح الإسلامي ولاية بيزنطية ، وقد ساءت أحوالها كثيرا في ظل هذا الحكم ، حيث أن الأباطرة البيزنطيين لم يدخروا وسعا للحصول على أكبر قدر ممكن من الضرائب التي كان عبؤها يقع على كاهل المصريين دون غيرهم ، واضطربت أمورها الدينية بسبب تطرف أباطرة بيزنطة في اضطهاد المصريين لإقبالهم الشديد على اعتناق المسيحية ، كما أن الشعب المصري لم يكن له حق الاشتراك في حكم بلاده أو الجيش ، ولم تكن اللغة المصرية هي اللغة الرسمية ، وإنما كانت اللغة اليونانية هي لغة الحكومة منذ عصر البطالمة حتى الفتح الإسلامى.

ولذا كانت مصر أكثر الولايات البيزنطية استعدادا للدخول في حوزة المسلمين واعتناق الإسلام ، وذلك لأسباب عديدة منها الآتي:

الأسباب الدينية:

اعتنق المصريون المسيحية وتحمسوا لهذا الدين الجديد لبعث شعورهم القومي وإبراز كيانهم ، ولذا كان من الطبيعي أن تلقى هذه الديانة الجديدة العداء من أباطرة بيزنطة الوثنيين اعتبارا من حكم الإمبراطور سفيروس (١٩٣-٢١١م) الذي شن حملة اضطهاد واسعة النطاق ضد معتنقي المسيحية سنة٢٠٢ م[١] ، وظلت المسيحية تلقى اضطهادا كثيرا حتى ولى العرش البيزنطي الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤-٣٠٥م الذي بلغ الاضطهاد أقصاه خلال فترة حكمه ، ويدل على ذلك أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكمه أي سنة ٢٨٤م[٢] ، وذلك إشارة إلى ما عاناه الأقباط في تلك السنة من أذى.

---

(١) رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة ، القاهرة ١٩٨٢، جـ٢ ص٣٤.
(٢) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ، تاريخ المصريين ، ص ١٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨، ص١٤،١٣.

ويذكر المؤرخون لهذه الفترة أنه في سنة ٣٠٠م كانت مصر بلدا وثنيا في جوهرها ، بينما أصبحت في سنة٣٣٠ م بلدا يدين معظم أهله بالمسيحية ، ولعل ذلك راجع لتحقيق المسيحية بعض الانتصارات كما أن بعض الأباطرة أوقف الاضطهادات ، وعلى الرغم من ذلك نشأت الخلافات المذهبية حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام وعقدت المجامع واحتدم النقاش فيها ، وبلغ النزاع بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية أقصاه ، وعقد مجمع خلقدونية Chalcedon بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م ، وأقر ما ذهبت إليه كنيسة القسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين وقرر بأن مذهب الكنيسة المصرية القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة كفر وخروج على الدين الصحيح.

كما قرر المجمع أيضا حرمان ديسقورس بطريرك الإسكندرية من الكنيسة مما أمضى إلى اتخاذ الخلاف الديني في مصر شكلا قوميا ، ورفض ديسقورس وشعب مصر ما أقره مجمع خلقدونية ، وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرثوذكس أي أتباع الديانة الصحيحة.

وعرفوا أيضا باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعى أسقف مدينة الرها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح الإسلامي باسم الملكانيين لاعتناقهم المذهب الملكي أو الإمبراطوري الذي ينادى بالطبيعتين.

ومن هنا اتسمت العلاقات بين الجانبين بكثير من العنف والاضطهاد ، وساءت أحوال البلاد ، واضطربت الأمور الدينية فيها ، وتفجر الصراع المذهبي بينها وبين السلطة الحاكمة[١].

(١) وهيب عطا الله جرجس: تعاليم كنيسة الإسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة، ١٩٦١، ص١٥، اسحق عبيد: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة في مدينة الله ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص٨٨.

وقد قابل المصريون الاضطهاد الديني بالمقاومة الإيجابية أحيانا ، ولكن الغالبية العظمى من الشعب المصري لجأت إلى المقاومة السلبية ، وذلك بالفرار من المعابد والأديرة وهجر قراهم ومزارعهم ، مما أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد واضطراب مرافقها الاقتصادية[1] كما سيتضح.

الأحوال الاقتصادية:

إن أول ما يلفت نظر القارئ في حالة مصر الاقتصادية خلال القرن السابع الميلادي هو ظهور الضياع الكبيرة التي تملكها الأسر النبيلة ، ويتضح ذلك من خلال أوراق البردي العربية التي تعطينا معلومات وفيرة عن بعض الأسر التي امتلكت جهازا إداريا خاصا بها مثل الكتبة والمحاسبين ومحصلي الضرائب ، بل كان لها جيش خاص لحماية أملاكها ، وبعض المراكب النيلية ، وكانت هذه الأسر في البهنسا والأشمونيين و الإسكندرية.

وبصفة عامة ساءت حالة مصر الزراعية وساءت حالة الفلاحين ، فقد صاروا العبيد البؤساء... والملاك الصغار والسكان المساكين ، وصارت القرية تعسة ، وأصبح الفلاح يلتمس رفع المظالم عنه ، وأنهكت أنواع الضرائب كواهل المصريين في الوقت الذي أعفى فيه كبار الملاك مما أثار شكوى الفلاحين وتذمرهم مما اضطر الكثير منهم لوضع أنفسهم تحت حماية أمير من الأمراء وهو ما عرف بـ (نظام الحماية)[2] ، واضطر فريق أخر إلى هجر قراهم ومزارعهم.

ومن أمثلة الضرائب التي فرضها البيزنطيون واستعملوا القسوة في تحصيلها الآتي:

---

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص٩.
(٢) محمد حمدى المناوى : مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٠م ، جـ١ ص٢

- ضريبة الرءوس وكانت تفرض على كل سكان مصر من الذكور الذين يتراوح عمرهم بين أربع عشرة وستين عاما ، ماعدا فئات ممتازة معفاة من هذه الضريبة ، وهم الروم المقيمون في مصر ، وأبناء الجند الإغريق ، وعدد من القسس ، ومواطني الإسكندرية ، واليهود.
- ضريبة سنوية كانت تفرض على جميع الحيوانات.
- ضريبة شهرية كانت تجبى من التجار.
- كان صيد السمك والطيور لا يتم إلا برخصة.
- كانت الحكومة تجبى ضريبة على البضائع المصنعة في كل مصنع قبل خروجها.
- ضريبة على من لا يقم بأعمال السخرة فى حفر الترع وتطهيرها.
- ضريبة على أثاث المنازل.
- ضريبة على الحمامات العامة.
- ضريبة التاج ، وتدفع عند تولية إمبراطور جديد.
- ضريبة تدفع عند إقامة تمثال أو بناء معبد للإمبراطور.
- ضريبة على التجارة المارة في النيل.
- ضريبة على الأسواق.

هذه أنواع متعددة من الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة البيزنطية على البلاد ، وكانت تقع على كاهل صغار الملاك والفلاحين ، مما جعل طبقة صغار الملاك تختفي تدريجيا.

والأسوأ من ذلك أن الأموال المحصلة من هذه الضرائب كانت لا تصرف في تحسين مرافق الدولة ، بل أخذت طريقها إلى خزينة الدولة البيزنطية تلك الدولة التي اعتبرت مصر حقلا ومخزنا للغلال يزودونها باحتياجاتهم.

obeikandi.com

كما اعتبرت مصر مصدرا لجباية الضرائب والحصول على حاجات الإمبراطورية من الأموال ، مما أدى إلى إهمال شئون الزراعة وتأخر الصناعة وانحطاط التجارة وفساد أحوال مصر الاقتصادية بوجه عام.

الأحوال الإدارية والعسكرية:

عمل التقسيم الإداري لمصر خلال تلك الفترة على إضعاف سلطة الدولة بها فقد كانت مصر مقسمة إلى خمسة أقسام إدارية كبرى هي:

- ***الإسكندرية*** :كانت أهم هذه الأقسام ، باعتبارها عاصمة مصر في العصر البيزنطي ، ومقر الحاكم البيزنطي العام.
- ***شرق الدلتا*** : وتشمل المنطقة الواقعة شرق فرع دمياط حتى حدود مصر مع الشام.
- ***غرب الدلتا*** : وكانت تسمى بليبيا.
- ***مصر الوسطى*** : ومنها إقليم الفيوم.
- ***مصر العليا*** : وكانت تمتد حتى أخر حدود مصر الجنوبية[1]

ولم تكن هناك وحدة إدارية تربط بين كل هذه الأقسام ، إذ كانت سلطة الحاكم البيزنطي بالإسكندرية ضعيفة وكان يحكم كل إقليم أمير يعرف في المصطلح البيزنطي باسم الدوقى[2] ، بل ترتب على هذا التقسيم الإداري لمصر تحت حكم الدولة البيزنطية أن أصبح لكل من هذه الأقسام حاكم يتولى إدارة شئون الإقليم ، ويكاد يكون مستقلا بشئون إدارته وأصبح لكل إقليم جيشه الخاص ، وهذا يعنى أن جيش مصر كان جيشا إقليميا اقتصرت مهمته على الدفاع عن الجهات التي يرابط فيها ، وكان بعضهم من المصريين

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة ص١٧.
(٢) بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد، القاهرة ١٩٤٥م، ص٢٣٩.

المجندين بعد أن قامت الدولة البيزنطية بتغيير سياستها التي اتبعتها في أول الأمر وهى عدم تجنيد المصريين في الجيش[١].

ولم يكن لهذا الجيش من الصفات العسكرية إلا حظ ضئيل وكانت مهمة أفراد الجيش الرئيسية هي مساعدة الموظفين في أعمالهم والقضاء على قطاع الطرق،والاشتراك في جباية الضرائب ، وإخماد الثورات الدينية[٢]، ولذا ضعفت الناحية الحربية بسبب عدم الوحدة والانسجام حيث كان يخضع لخمسة قواد في مصر كلهم على قدم المساواة.

ولذلك عندما جاء العرب فاتحين لمصر لم يقاتلوا جيشا موحدا بل كان لكل إقليم جيش ينتظر ظهور العرب في إقليمهم ليدافعوا عنه[٣].

الأحوال الاجتماعية:

أصاب الخلل أيضا البناء الاجتماعي ، حيث أُعتبر المصريون الطبقة السفلي من طبقات المجتمع ، وترتب على ذلك قيامهم بأشد الالتزامات قسوة وإجحافا ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية ، بجانب معاملتهم معاملة سيئة للغاية.

هكذا كان حال المصريين الضعفاء ، بينما كان الحال على النقيض تماما بالنسبة للجاليات الأخرى مثل الروم واليونانيين واليهود وخاصة الذين كانوا يقطنون مدينة الإسكندرية ، حيث كانت بمثابة مدينة يونانية ، وكان سكان البلاد من المصريين يعدون التوجه إليها بمثابة رحيلا عن مصر وخروجا منها ، إذ اشتهرت الإسكندرية بالبذخ والثراء خلال تلك الفترة [٤] .

(١) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، القاهرة١٩٩٣، ص١٧.
(٢) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ، ص١٨..
(٣) محمد حمدى المناوى: مصر في ظل الإسلام ، ص٤.
4 - Devonshire L’Egypte musulmane et les fondaters des ses Mony ments le Caire, 1982, P.18.

وكانت على العكس من بقية أجزاء مصر التي كانت بمثابة أقاليم زراعية تتقاسم فيها أسر قوية ، على حين أصبح الفلاح عبدا تحت حماية الملاك الأقوياء الذين ابتزوا أموال البلاد ، دون رعاية شئونها أو إصلاح أمورها ، ولذا انقطعت علاقة العطف على الشعب(١) .

وهكذا صار المصريون غرباء في بلادهم يقدمون ثرواتها للمستعمرين ، وتعاونت هذه الأسباب جميعها على إضعاف مصر ، وبدت مصر متهالكة وضعيفة بعد أن اختلت أحوالها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وهيأت هذه الأسباب البلاد لتقبل الفتح العربي الإسلامي لمصر وانتقال السلطة من أيدي البيزنطيين إلى أيدي العرب.

دوافع الفتح الإسلامي لمصر:

نجحت الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إنزال ضربات متوالية للإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ، حيث انتصر المسلمون على الروم في موقعة أجنادين سنة١٣ هـ/٦٣٤م(٢) ، ثم أذعنت لهم دمشق وحمص سنة ١٥هـ/٦٣٦م بعد أن تولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٣) ، وتعرض جيش بيزنطة لهزيمة ساحقة في موقعة اليرموك سنة ١٥هـ/٦٣٦م(٤) ، وأزال العرب ملك الأكاسرة في فارس عقب انتصارهم في موقعة القادسية أواخر سنة ١٦هـ/٦٣٧م ، واستولوا على عاصمتهم المدائن ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على عكا وصيدا وبيروت وصور واللاذقية ١٧هـ/٦٣٨م(٥) ، وخضعت إنطاكية وبيت المقدس سنة ١٨هـ/٦٣٨م ثم ماردين وميافارقين والرها من أرض الجزيرة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص٥٣ ، الكندي : كتاب الولاة ، ص ٦،٧.
(٢) اليعقوبى : تاريخه، ص١٣٤.
(٣) اليعقوبى : تاريخه ، ص١٤١.
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص١٣٨.
(٥) اليعقوبى : تاريخه ، ص١٤٧، أبو زيد شلبى: الخلفاء الراشدون، ص١٤١.

وأرض العراق سنة ١٩هـ/٦٤٠م ، كما سقطت قيصرية سنة ٢٠هـ/٦٤٠م[١] ، وبذلك لم يبق لبيزنطة سوى أملاكها في مصر وشمال إفريقية وجاء دور مصر بعد ذلك.

وعند فتح بيت المقدس سنة ١٧هـ /٦٣٨م فوتح الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في موضوع فتح مصر أثناء وجوده في الجابية ، وكان عمرو ابن العاص أكثر القادة تحمسا وأشدهم حرصا لتنفيذ هذا الموضوع لما كان يعرفه عن رخاء مصر وكثرة ثرواتها ، كما أنه أدرك ضعف مصر في ذلك الوقت ، وضرورة فتحها لتأمين سلامة العرب في بلاد الشام وحرمان البيزنطيين من اتخاذها قاعدة ومركزا للهجوم من جديد على بلاد الشام[٢] .

بجانب أن العرب كانوا على علم تام بثراء مصر وخصبها حيث أتى إليها الكثير منهم للاتجار في أيام الجاهلية مثل عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان[٣] والمغيرة بن شعبة ، هذا بجانب الكثير من الأعراب الذين كانوا يفدون إلى الصعيد عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية ، بدليل أن بعض المؤرخين ذكر أن مدينة قفط تعتبر نصف عربية[٤].

فكر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرا في مشروع فتح مصر وتريث في إجابة عمرو بن العاص ، وربما كان ذلك لضخامة هذا المشروع ، ويذكر أن عمرو بن العاص سار لفتح مصر وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يزال مترددا ، واتفق معه على أنه سوف يرسل له كتابا وقال له: "فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها ، فانصرف ، وإن كنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره" ، ولم يتسلم عمرو بن العاص الكتاب من رسول الخليفة إلا بعد أن دخل أرض مصر ليمض قدما في مشروعه حتى لو كان الخليفة قد أمره بالانصراف عنها[٥].

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٤٥.
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص٥٣، الكندي :كتاب الولاة، ص٦،٧.
(٣) السيوطى: حسن جـ١ ص٩٢.
(٤) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ص٢٢.
(٥) الكندي: ولاة مصر ، ص٣١.

خطة فتح مصر:

خرج عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين على رأس جيش صغير يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف مقاتل[1]، وكان ذلك في أواخر سنة ١٨هـ/٦٣٩م متخذا الطريق الذي سلكه معظم غزاة مصر، وهو طريق الصحراء الشرقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط متجنبا في نفس الوقت فروع النيل، حتى وصل العريش التي استولى عليها في ذي الحجة سنة ١٨هـ/ ديسمبر ٦٣٩م وبها احتفل بعيد الأضحى[2]، ومنها سار متجها نحو الفرما التي استطاع الاستيلاء عليها بعد حصار لم يستمر أكثر من شهر واحد، ثم قرر بعد ذلك هدم أسوارها وحصونها حتى لا يضطر لترك حامية فيها مع قلة عدد الجند وصغر جيشه، وكان ذلك أوائل سنة ١٩هـ/٦٤٠م.

ثم واصل سيره حتى وصل مدينة بلبيس في النصف الأول من محرم سنة ١٩هـ/يناير ٦٤٠م، فحاصرها نحو شهر أخر حتى تمكن من هزيمة حاميتها من الروم و الاستيلاء عليها بعد قتال شديد خسر فيه العرب عدد من جنودهم ،كما خسر البيزنطيون ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير[3].

وبذلك تقدم عمرو على رأس جيشه بخطى ثابتة نحو نهر النيل بعد أن انفتح الطريق أمامه على مصراعيه إلى رأس الدلتا حتى وصل أم دنين. وهى قرية كانت تقع على النيل شمال حصن بابليون[4]، وهناك نشب قتال شديد بين العرب والروم أرغمهم عمرو على التحصن بحصن بابليون. وحصن بابليون الذي بناه الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م)، فهو يعرف في المصادر العربية باسم حصن الشمع لأنه كان يوقد عليه الشمع في بداية كل شهر، كما عرف بحصن باب اليون[5]، وأدرك القائد الروماني تيودور وكذلك المقوقس خطورة

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٥١، البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢١٢.
(٢) محمد حمدى المناوى: مصر في ظل الإسلام ص١٠..
(٣) بتلر: فتح العرب لمصر، ص١٥٩..
(٤) المقريزى: الخطط، جـ١ ص٢٨٩.
5 - Wiet L' Egypte Musulmane P. 109.

الموقف ، حيث سارع المقوقس بحفر خندق حول هذا الحصن وعمل على تعبئة الجيوش البيزنطية به لمواجه العرب ، حيث أن بابليون من أعظم مراكز مصر ، وذلك لموقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى مدينة الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت، وأحس عمرو بدوره بعظم المقاومة في هذه البقعة فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستنجد به ، ثم اتجه نحو الفيوم انتظارا لوصول المدد(١) ، حيث قضى في غزوه بضعة أسابيع قدم خلالها المدد الذي بلغت عدته أربعة آلاف رجل(٢) على رأسهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد.

ويذكر البعض خارجة بن حذافة بدلا من مسلمة بن مخلد ، وقد وصفهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن الواحد منهم يعادل ألفا(٣).

وبعد وصول الإمدادات ارتفعت الروح المعنوية للعرب وقويت عزائمهم وبدأ عمرو يعد العدة للمعركة الفاصلة مع الروم في مصر.

تأكد عمرو أن أمر الروم سيطول خلف أسوار الحصن ، ولذا عمل علي جذبهم خارج الحصن ليقاتلوه علي أرض مفتوحة ، ولما خرجت القوات البيزنطية سار عمرو مع معظم جيشه للقائهم بعد أن قسم جيشه إلي مجموعة من الفرق ونصب الكمائن خلف تلال رملية ، حيث جعل كل فرقة تهاجم الحصن وتتظاهر بالانهزام فيتتبعها الروم ، وهنا تبرز الفرق الأخرى من مكمنها فتهاجم الروم وتنقض عليهم ، فتحصن الكثير منهم بالحصن مرة أخري(٤)، وهامت جموع كثيرة منهم في مصر السفلي ، وهكذا لحقت الهزيمة بالروم فيما عرف بموقعة عين شمس وهي التي حدثت في رجب ١٩هـ/ يوليو ٦٤٠م(٥) ، وهذا ما جعل العرب يضربون الحصار حول الحصن ، واستمر هذا الحصار بضعة أشهر ضعفت خلالها

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، ص١٦٢.
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر، ص٥٦ ، المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٢٨٩.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ، ص٥٦.
(٤) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٢٨٩.
(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ، ص٢١٣.

الروح المعنوية لقوات الروم ولم يعد أمامهم سوي مقاومة العرب علي فك الحصار وانتهز المقوقس (قيرس) ارتفاع النيل وصعوبة اقتحام المسلمين للحصن وانتقل إلي جزيرة الروضة ودخل في مفاوضات سرية مع عمرو مستهدفا إنقاذ موقف البيزنطيين المتدهور، وعقد صلحا مع العرب مقابل أن يبذل لهم مبلغا من المال[1] ولكن عمرو رفض هذا العرض وخيرهم بين أشياء ثلاثة. الدخول في الإسلام . أو دفع الجزية. أو القتال، وبالرغم من هذا عاد قيرس للمفاوضة مرة أخري مما جعل عمرو يرسل إليه وفدا علي رأسه عبادة بن الصامت، وفي صدي المفاوضة عرض قيرس أن يبذل لكل فرد من القوات العربية دينارين ولعمرو ثلاث مائة، ويرسل إلي خليفتهم بألف دينار مقابل انسحاب العرب وعودتهم لبلادهم[2] ، ورفض الوفد العربي هذا العرض بشدة كما رفض كبار الروم داخل الحصن الإذعان لمطالب المسلمين واستؤنف القتال من جديد بين الفريقين حتى سلم الروم في النهاية[3] ، ويقال أن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام[4] ، الذي تسور الحصن علي سلم واعتلي سوره وكبر فكبر المسلمون وصعدوا خلفه السور لينقضوا علي من فيه، وخيل للبيزنطيين داخل الحصن أن المسلمين اقتحموا الحصن عليهم ودخلوه، ومن ثم خاف قائد الحامية بالحصن علي أرواحهم وطلب من عمرو الصلح، وعقدت بين الطرفين معاهدة عرفت باسم معاهدة بابليون الأولي سنة ١٩هـ /٦٤٠م[5] وأهم شروط المعاهدة الآتي :

١. أن يخرج رجال الحامية من الحصن في ثلاثة أيام.
٢. أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم ما يلزمهم من المؤن ما يكفيهم لبضعة أيام وكانت وجهتهم نحو الإسكندرية

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦١.
(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٦١.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٢٩٠.
(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢١٣.
(٥) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٢.

٣. أن يسلموا الحصن وما فيه من أسلحة وآلات الحرب للعرب ٠

٤. أن يدفع أهل مدينة مصر المجاورة للحصن الجزية[١] .

وهكذا سقط حصن بابليون في يد العرب وكانت بابليون من أهم المراكز المصرية إن لم تكن أهمها جميعا نظرا لموقعها علي رأس الدلتا ، ولكونها علي الطريق الموصل إلي الإسكندرية عاصمة البلاد في ذلك الوقت.

والحصن منيع كما يقع علي النيل ، وكان سمك جدرانه ثمانية عشر قدما ويتخلل أسواره عدة أبواب ، وأمامه جزيرة الروضة ذات الحصون القوية التي تعد مركز إمدادات للحصن ، والحصن بوجه عام كان غاية في القوة والمنعة.

إتمام الفتح العربي الإسلامي لمصر:

بعد إتمام عمرو بن العاص السيطرة علي حصن بابليون والمناطق المجاورة له كان شديد الرغبة في السير بجنوده نحو الإسكندرية ، حيث كان فتحها مهما لدي المسلمين كفتح بيت المقدس[٢] ، وذلك لأن إتمام الفتح العربي الإسلامي لمصر كان منوطا بفتح الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت.

ويؤكد ذلك الكندي بقوله:"لما حاز المسلمون الحصن بما فيه أجمع عمرو علي السير إلي الإسكندرية ، فسار إليها في ربيع أول سنة ٢٠هـ/٦٤١م"[٣].

وكان عمرو قد كتب إلي الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ يستأذنه في الزحف إليها ، فأذن له بذلك[٤] ، وخرج مع عمرو جماعة من القبط يقدمون له العون من خلال إرشاده إلى الطرق المؤدية إلي المدن والقرى ، وتقديم المؤن لهم والأعلاف لخيولهم[٥].

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص٩٥

(٢) الكندى: ولاة مصر ص٣٣، عبد الرحمن الرافعى: مصر في العصور الوسطى منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني ، ط دار النهضة العربية ١٩٧٠م ، ص٢٧.

(٣) الكندي: ولاة مصر ، ص٣٣.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان ، جـ١ ص٢٦٠ ، سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص٥١.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة مدبولى القاهرة ، ص٧٣ ، النويرى: نهاية الأرب ، جـ١٩ ، ص٣٢.

obeikandi.com

وبدأ العرب سيرهم علي الضفة الغربية لفرع رشيد من ناحية الصحراء الغربية ، حيث يعد هذا الطريق مجالا أوسع لخيلهم ومناسبا لتقدمهم نحو الإسكندرية(١).

وكانت قرية نقيوس(٢) هي أولى القرى التي قصدها عمرو أثناء سيره للإسكندرية ، فهاجمها وتمكن من الاستيلاء على حصونها بعد أن فر منها العديد من جند الروم مع قائدهم "دومنتيانوس" الذي كان متوليا شئون الدفاع عنه(٣).

وواصل عمرو سيره عبر غرب الدلتا متوجها صوب الإسكندرية ، فلم يلق أحدا من جند الروم حتى بلغ "ترنوط"(٤) ، فلقي بها حامية رومانية جرت بينهم وبينه مناوشات كانت الغلبة بعدها للمسلمين(٥) ، وبعد سيطرة العرب على ترنوط أرسل عمرو كتيبة من جنوده يقودها شريك بن سمى المرادي لتتبع أثر الروم الفارين من نقيوس وترنوط ولحق بهم عند كوم شريك(٦) ، وهناك دارت بينهما معركة ضارية انتهت بهزيمة الروم وفرارهم(٧).

وأثناء مواصلة عمرو سيره نحو الإسكندرية متتبعا الطريق إلى الشمال الغربي من ناحية الصحراء الغربية حتى الدلنجات ، قدم إليه أهالي رشيد ومحلة دميرة ودمنهور وأبيار. مدن وقرى في غرب الدلتا. طالبين الصلح معه والخضوع لحكم العرب دون قتال(٨).

ثم واجه عمرو جموعا من الروم الفارين من المناطق التي استولى عليها العرب فاعترضوا سبيله مرة ثانية عند مدينة سلطيس(٩) ، حيث نشبت بها معركة انتهت بهزيمة الروم(١٠) بعد أن تركوا المدينة فارين نحو الشمال ، حيث استقروا عند مدينة الكريون(١١)،

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ، ص٢٤٩.
(٢) نقيوس: هي قرية بين الإسكندرية ورشيد ، تقع على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد.
(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ، ص٢٤٩.
(٤) ترنوط: هي قرية من أعمال محافظة البحيرة الحالية تقع على الجانب الغربي لفرع رشيد.
(٥) النويرى: نهاية الأرب ، جـ١٩ ص٣٠٢ ، المقريزى: الخطط ، جـ١ ص١٦٣.
(٦) كوم شريك: هي قرية ما زالت موجودة حتى اليوم بمركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة على بعد ستة عشر ميلا.
(٧) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص١٦٣.
(٨) الواقدى: فتوح الشام الطبعة الثانية ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٩٣٤ ، جـ٢ ص٥٤.
(٩) هى مدينة تابعة لمركز دمنهور حاليا ، انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان.
(١٠) بتلر: فتح العرب لمصر ، ص٢٧٤ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ، ص٢١٨.
(١١) الكريون: هي مدينة كبيرة، من أعمال محافظة البحيرة الحالية تقع على خليج الإسكندرية.

وكان بها القائد الروماني "تيودور" الذي ازدادت قوته ، وقويت شوكته بعد أن أتته الجموع الهاربة من المدن والقرى المجاورة بعد استيلاء العرب عليها مثل نقيوس ، وبلهيب ، والخيس ، وترنوط ، وسلطيس ، وغيرها[١]

وبالكريون عول الروم على الوقوف أمام العرب وقفتهم الأخيرة قبل أن يتقهقروا إلى الإسكندرية ، وكان على مقدمة الجيش العربي عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحامل لوائه وردان مولى عمرو ، وبعد معركة عنيفة تكبد فيها الجانبان خسائر جسيمة تمكن العرب من السيطرة على الكريون والاستيلاء على حصنها المنيع[٢] ، وفر العديد من الروم إلى الإسكندرية وبقي العرب بالمدينة عدة أيام للاستراحة من عناء الحروب المتتالية ، ثم تقدم عمرو بالجيش العربي صوب الإسكندرية التي أشرف على أسوارها بعد أيام قلائل[٣] ، وحمل على أسوارها ولكنه ارتد عقب أول هجوم ، حيث أدرك استحالة السيطرة عليها لمناعتها وقوة حاميتها من الروم وغيرها ، والتي كان عددها يصل للآلاف[٤]

واضطر العرب للوقوف على مشارف المدينة لقطع الاتصال بينها وبين المدن والقرى المحيطة بها ومنع الإمدادات من الوصول إليها ، وعسكروا في موضع ما بين الحلوة وقصر فارس . وهو موقع بشرق الإسكندرية ، وكان معهم بعض القبط يمدونهم بما يحتاجون إليه من المؤن والأعلاف ، واستمروا بهذا الموضع فترة كان القتال فيها عبارة عن تراشق بالسهام من بعيد أو مبارزة فردية بالسيف كانت غالبا ما تنتهي بانهزام الروم[٥].

وبالإضافة لمحاولات عمرو فتح الإسكندرية فإنه وجه بعض سرايا لإخضاع مدن وقرى مصر السفلى ، وبعد السيطرة على العديد منها عاد ثانية وشدد الحصار على الإسكندرية ، واستمر فى ذلك عدة أشهر[٦] ، وبعدها تم له فتحها بعد معركة عنيفة[٧] ،

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ، ص٢٦ النويرى: نهاية الأرب ، جـ١٩ ، ص٢٠٣.
(٢) الكندي: ولاة مصر ص٣٣.
(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ، ص٢٧٥ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ، ٢١٩.
(٤) سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص٥١ ، أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص٢٦.
(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٧٥-٧٧ ، النويرى: نهاية الأرب ، جـ١٩، ص٢٠٣.
(٦) البلاذرى: فتوح البلدان ، ص٢٥٩ ، الكندي: ولاة مصر ، ص٣٣.
(٧) حسين مؤنس: تاريخ الإسلام ، ص١٣٣.

واستخلف عليها عبد الله بن حذافة وترك معه حامية من المسلمين بلغ عددهم ألف رجل[١]، ثم مضى ومن بقى معه من جند العرب في طلب من هرب من الروم في البر، حيث كان البعض منهم قد فر إلى البحر والبعض قد فر إلى البر، وذلك أثناء استيلائه على الإسكندرية، فعاد من كان فر منهم في البحر إلى الإسكندرية ثانية وقتلوا من كان فيها من العرب ولم ينج إلا من هرب، فلما علم بذلك عمرو عاد مسرعا إلى الإسكندرية وحمل عليها ففتحها ثانية[٢]، ودخلها العرب فيما بين عامي ٢٠-٢١هـ/٦٤٢م[٣].

وأرسل عمرو بشارته بالفتح للخليفة عمرو بن الخطاب ﷺ مع أحد رجال القبائل العربية في غرب الدلتا وهو معاوية بن حديج الكندي[٤]، وقد اختلفت الآراء حول أسلوب فتح العرب للإسكندرية، فهناك من المؤرخين من يرى أنها فتحت صلحا[٥]، وهناك فريق أخر يرى أنها فتحت عنوة[٦].

إلا أن الرأي السائد أنها فتحت صلحا، حيث شاءت الأقدار أن يموت هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٢٠هـ/٦٤١م بعد أن عزم على الخروج لمباشرة الحرب في الإسكندرية بنفسه، مما أضعف في شوكة الروم، لذا اضطرت الإمبراطورة مارين الوصية على العرش للصلح مع العرب المسلمين[٧]، وطلب قيرس الصلح من عمرو بن العاص، ولم يكن أمام عمرو سوى الترحيب بهذا العرض، وعقدت معاهدة بابليون الثانية[٨] تمييزا لها عن معاهدة بابليون الأولى، وسميت أيضا بمعاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الإسكندرية، وكان عقد هذه المعاهدة يعنى سقوط الإسكندرية والتسليم بنفوذ العرب في

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٢٢.
(٢) الواقدى: فتوح الشام الطبعة الثانية، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٩٣٤، جـ٢، ص٥٤.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٨٠، المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٦٥.
(٤) البلاذرى: فتوح البلدان ص٢٥٩، أبو المحاسن: النجوم، جـ١ ص٧٥.
(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص٧٢، الطبري: الرسل، جـ٤، ص١٠٥.
(٦) الكندي: ولاة مصر ص٣٣، ابن خلدون: تاريخه، جـ٢، ص١١٥، أبو المحاسن: النجوم، جـ١ ص٧٥.
(٧) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، ص١٣.
(٨) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ص٢٧.

مصر ، فعقب سقوط الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا إلى سائر الأقاليم في مصر(١)، وقد أمدنا يوحنا النقيوسى بشروط هذا الصلح الثمانية وهى :

١. أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهرا.
٢. أن يبقى العرب فى مواضعهم ولا يسعوا لقتال الإسكندرية ، وأن يكف الروم عن القتال.
٣. أن يتم جلاء حامية الروم من الإسكندرية بأموالهم ومتاعهم عن طريق البحر أما الذي يرحل عن طريق البر فعليه أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى في أرض مصر.
٤. ألا يسعى الروم إلى العودة إلى مصر ومحاولة استردادها.
٥. أن يدفع الجزية كل من دخل في هذا العقد.
٦. ألا يستولي المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا فى أمورهم الدينية.
٧. أن يسمح لليهود بالإقامة في الأسكندرية٠
٨. أن يقدم اليهود للعرب ١٥٠ جنديا ، و٥٠ مدنيا كرهائن لتنفيذ شروط هذا الصلح(٢) .

وبفتح الإسكندرية أتم العرب السيطرة على منطقة غرب الدلتا ، وكذلك إتمام الفتح العربي الإسلامي لمصر، حيث استقر عمرو بن العاص بعد ذلك بمقره الدائم بمدينة الفسطاط التي اختطها العرب واتخذوها عاصمة لمصر يدير منها الوالي عمرو بن العاص حكم البلاد.

(١) سيدة كاشف: مصر في فجر الإسلام ، ص١٤.
(٢)يوحنا النقيوسى: تاريخ مصر ، ص٢١٢،٢١١.
Stanly: History of Egypte in the Middle Ages, London, 1936,P.11.